الجهـاد

□ الجهـاد □

والله ، لَذِكْر الجهاد يُبكي عيون أولي الألباب ، بعد أن غبطنا أنفسنا بالزائل من المنازل والأحباب ، وركنّا إلى الدنيا ركون الظمآن إلى شراب السَّراب ، فهوىٰ نجم الجهاد من سماءِ عزّه بعد أن كان مشرقًا سنيًّا ، وانمحىٰ رسمه واسمه كأن لم يكن له من قبل سَمِيًّا .

دُرُست آثاره فلا تُرى ، وطُمست أنواره بين الورى ، وأعتم ليله بعد أن كان مقمرًا ، وأظلم نهاره بعد أن كان نيرا ، وذوى غصنه بعد أن كان مورقًا ، وانطفأ حسنه بعد أن كان مشرقًا ، صَفَنَتْ[1] خيوله فلا تركضُ ، وربضت أسوده فلا تنهضُ .

فتعال أخي ، لننظر كيف يكون الجزاء من جنس العمل في هذا الباب :

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ قال : « إذا ضنّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة[2]، وتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، أدخل الله تعالى عليهم ذلًّا لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم »[3].

---

(١) الصافن من الخيل : القائم على ثلاثة قوائم ، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر - انظر : الصحاح للجوهري .

(٢) العينية : بكسر العين المهملة ، وسكون الياء المثناة قال عنها البيهقي في الشعب : أن يقول الرجل اشتر كذا وكذا وأنا اشتريه منك بربح كذا وكذا . وقال الهروي في الغريبين : هي أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر .. انظر صحيح الجامع رقم ٦٨٨ .

وفي رواية : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »[1] .

إلى الذين يظنون أن القتل والقتال ذلّ ، وأن العزّ كل العز في اكتناز الأموال ، والإقبال على الزرع والثمار نهدي ما يقوله ابن النحاس : عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال : لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلّا ضربهم الله بالفقر .

هؤلاء الذين تركوا الجهاد للإقبال على الدنيا وعَرَضِها ومالها وثمرها ، يجازيهم الله بالفقر : فقر النفوس ، وزوال العَرَضِ عنهم .

أما عن فقر النفوس فيقول ابن النحّاس : الذي نشاهده من الناس لمّا أعرضوا عن الجهاد والغنائم سلّط الله عليهم فقر قلب ، وشدة حرص ، وغلبة شحّ ، وصار القليل من الدنيا عندهم خطيرًا جليلًا ، وأذلّهم الحرص والطمع ، فقلّ أن تجد منهم أحدًا إلا وقد استولت عليه الذِّلّة لمن يرى أن رزقه يأتي من جهته ، واستعبده الطمع والخوف من فواته ، ولو كان غنيًّا لكان حرًّا ، فهو في الحقيقة وإن كان ذا ثروة فهو فقير ، وإن كان في ظاهره عزيزًا فالذلُّ قد استولى على قلبه وسكن فيه ، وليس عند من يرتزق من سيفه شيء من ذلك ؛ لأن رزقه من الغنيمة مأخوذ بالسيف ، ليس لأحد غير الله فيه منّة .

ولمّا كانت الغنيمة حلالًا محضًا ، ليس فيه شبهة ، كانت سببًا في تنوير القلب وطرد ظلمات الشح والبخل والحرص من ساحته ، فصاحب الغنيمة وإن كان فقير اليد فهو غنيّ النفس ، وإن كان دثاره الظاهر الذلّ والمسكنة فشعاره الباطن العزّ والعظمة .

---

(١) إسناده صحيح : رواه أبو داود ، وإسناده حسن كما قال ابن النحاس ، ورواه أحمد بنحوه وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، رقم ٤٨٢٥ ، ومن طريق آخر بنحوه ، ٥٠٠٧ ، وقال الشيخ : إسناده صحيح . وأبو نعيم في الحلية بنحوه عن ابن عمر .

قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ ، إنما الغنى غنى النفس »[1] .

وأما من اكتسبه من الشُّبه ، وأذلَّه الطمع للخلق ، فهو وإن كان عزيزًا في الظاهر ، فقلبه بالذلّ عامر ، وإن كان في الظاهر غنيًّا بما جمع ، فهو في الباطن فقير بالحرص والطمع ، وتأبى المكاسب الدنيّة إلا أن ثورت هذه الأخلاق الرديّة[2] .

عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ، ومن ترك الجهاد في سبيل الله ، ألبسه الله الذِّلة ، وشم‍ا البلاء ، ودُيِّث بالصَّغار ، وسيم الخسف ، ومنع النَّصَف[3] .

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اثَّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا الآخرة إلَّا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم و تضرّوه شيئًا والله على كل شيء قدير ﴾ [التوبة : ٣٨ - ٣٩] .

إنها ثقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض ، ثقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع ، الدعة والراحة والاستقرار ، ثقلة اللذات الفانية والأجل المحدود والهدف القر ثقلة اللحم والدم والتراب ، والأرض وما لها من جاذبية تشدُّ إلى أسفل ، وتقاو رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق .

هؤلاء الذين يخشون القتل في الجهاد ، يتوعدّهم الله بالعذاب إن هم تركو الجهاد .

والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو كذلك عذاب

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة – كتاب الرقاق – باب الغنى غنى النفس .

(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق لابن النحاس ١٠٩ – ١١٠ .

(٣) مشارع الأشواق .

الدنيا ، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ، ويقدمون على مذابح الذلّ أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء ، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذلّ فدفعت راغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء[1] .

إن طلاب السلامة لا يحسّون العار ، فالسلامة هدف الراضيين بالدون . إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة ، وإن ضريبة الذل لأفدحُ في كثير من الأحايين ، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيّل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تُطاق ، فتختار الذل والمهانة ، هربًا من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة مفزعة قلقلة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها .

تؤدي ضريبة الذل كاملة ، تؤديها من نفسها ، تؤديها من قدرها ، تؤديها مِنْ سمعتها ، تؤديها من اطمئنانها ، وكثيرًا ما تؤديها من دمها وأموالها وهي لا تشعر .

يقول الله تعالى : ﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ [التوبة : ٨١ - ٨٣] .

يقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله - :

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض ، ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة ، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان هؤلاء

(١) الظلال (٣ / ١٦٥٥) .

المخلفون فرحوا بالسلامة والراحة ، وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد ، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر** ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال ، ضعف همة ، وطراوة إرادة .

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون** ﴾ ، فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال ، فكيف بهم في حر جهنم ، وهي أشد حرًّا ، وأطول أبدًا ، وإنها لسخرية مريرة ، ولكنها كذلك حقيقة . فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض ، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله .

﴿ **فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة ، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة ﴿ **وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ [الحج : ٤٧] ، ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ فهو الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق .

وكما آثروا الراحة على الجهد وتخلفوا عن الركب في أول مرة فكذلك ﴿ **لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ فلمّا رضوا بالقعود أول مرة ، فكذلك جوزوا بأن منعوا من الانضمام إلى السائرين لركب الجهاد ، جزاءً وفاقًا من جنس العمل(١) .

وأيضًا يلوح الجزاء من جنس العمل في شأن المنافقين الذين جعلوا يتلكأون ويتلمسون المعاذير ، وفي القلوب ما فيها ﴿**لقد ابتغوا الفتنة من قبل ...**﴾ [التوبة : ٤٨] .

قال تعالى: ﴿**ومنهمُ من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا...**﴾ الآية [التوبة : ٤٩] .

---

(١) الظلال (٣ / ١٦٨٢) .

روى محمد بن إسحق أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم ، وهو في جهازه لغزوة تبوك للجدّ بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جدّ في جلاد بني الأصفر!»- يعني الروم - فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله ، لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني ، وإني لأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألّا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال : « قد أذنت لك ».

فماذا كان جزاؤهم ؟

﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ . فجهنم من ورائهم تحيط بهم ، وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات ، فلا يفلتون ، كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة ، وعن انتظار العقاب عليها حتمًا . جزاءَ التخلف والكذب والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير .

وقال تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ [محمد : ٢٧ - ٢٨] .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وعيدهم بهذه الميتة الفظيعة التي هدّرها الله لهم ، وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم ؛ أي يضربون وجوههم التي وَقَوْها من ضرب السيف حين فرُّوا من الجهاد ، فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال ، ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا ، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفرّوا ، فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم .

ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله ، وضربهم أدبارهم مناسب لكراهتهم رضوانه ، لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار[1] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، (٢٥-٢٦/١١٨-١١٩) الدار التونسية للنشر .

ولننظر كيف كان الجزاء من جنس العمل :

لمّا آثر الناس حياة الدعة والترف والإخلاد إلى القصور والعرض الزائل - على الجهاد في سبيل الله ، يلوح ذلك واضحًا جليًّا في نهاية الأندلس .

يقول الشاعر يروي ذلّ أمراء الأندلس وخنوعهم :

مما يزهّدني في أرض أندلسٍ أسماء معتمدٍ فيها ومعتضدِ
ألقاب مملكةٍ في غير موضعها كالهرِ يحكي انتفاخًا صورةَ الأسدِ

يقول ابن حزم في حرص ملوك الأندلس على عروشهم :

والله ، لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم بادروا إليهم ، فنحن نراهم يستمدون النصارىٰ ، فيمكنوهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا ، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس[1] .

هانت عليهم المنابر والمحاريب والجوامع ، فما لبثوا أن أقيم بها الصلبان وثبتت بها الأقسة والرهبان .

يقول ابن حبان شيخ مؤرخي الأندلس :

دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة ، فسفسف أخلاقهم، وسفّه أحلامهم وخبث ضمائرهم .

انظر إلى المعتصم بن صمادح يمنح قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل جعفر ابن أبي عبد الله بن مشرف حين أنشده قصيدته التي مطلعها :

قامت تجر ذيول العَصْب والحِبَرِ ضعيفة الخصْرِ والميثاق والنظرِ

ولمّا بلغ منها قوله :

لم يبق للجور في أيامهم أثرٌ إلّا الذي في عيون الغيد من حَوَرِ

قال المعتصم : لقد أعطيتك هذه القرية نظير هذا البيت الواحد ، ووقع له بها وعزل عنها نظر كل والٍ[2]

(١) رسائل ابن حزم (١٧٦/٣) .
(٢) الذخيرة (١٩٢/١٤) ، لابن بسام .

وانظر كيف يفعل الحرص على العرش والملك والتقاعس عن الجهاد ، انظر إلى الرجل الذي ترك الجهاد ، وضاعت على يديه الأندلس كيف ذلّ وافتقر : فهذا أبو عبد الله الصغير محمد بن علي بن نصر أو محمد الحادي عشر آخر ملوك غرناطة يتقاعس عن الجهاد، ويسلّم غرناطة للملكين الكاثوليكيين نظير حق الملكية له ولأحفاده لكافة أرجاء وكور برجة ، ودلاية ، ومرشانة ، وبلذوذ، ولـوتشار، وشبيلش، وأجيجر، وأرجية، وأندرش التي ارتضى الإقامة فيها مع أهله وحشمه ، يحكمها باسم فرناندوا وإيزابيلا ، يؤدي الضرائب وكل الأتاوات لهما ، ويحصل الخراج والعشور .

كان أبو عبد الله صغيرًا في تهاونه وتخاذله ، حريصًا على دنيا تفلتت من بين أصابعه ، ويقف باكيًا أمام قصر الحمراء فتقول له أمه :

ابك بكـاء النساء ملكًـــا لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولم يرثْ أحفاده وأولاده عنه غير الجوع والتشرد والحرمان .. فقد (رأى المقري في فاس أحفاد أبي عبد الله الصغير شيوخًا يتسولون ويعيشون من الصدقات .. وكان المقري قد نزل فاس في أوائل القرن السابع عشر الميلادي عام ١٦١٨م ، الموافق ١٠٢٧ هـ ، يبحث عن آثار الملك أبي عبد الله الصغير ، وزار قصره وتجوّل في جنباته ، وكان ولداه قد باعاه منذ زمن مضى ، ثم زارها بعد ذلك بعشر سنوات ، وعرف من أمر بنيه وأحفاده وذلّهم وفقرهم واحتياجهم للناس ما جعله يعتبر ويتعظ)[1] .

ويشاء الله أن يظل شاهد قبر أبي عبد الله الصغير - حيث كتب عليه اسمه، وتاريخ مولده، ويوم وفاته، وصفته- عتبة لباب منزل صغير بمدينة تلمسان، يطؤه الناس بأقدامهم في دخولهم وعند خروجهم .

فهل يقارن موقف أبي عبد الله الصغير بقول المعتمد بن عباد لألفونسوا السادس : رعي الجمال خير من رعي الخنازير .

---

(١) الإبادة لأحمد رائف (٣٠٤ - ٣٠٥) طبع دار الزهراء .

فجائع الدهر أنواع منوّعةٌ ... وللزمان مسرّات وأحزانُ
وللحوادث سلوان يهوّنها ... وما لما حلّ بالإسلامِ سلوانُ
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوى له أُحدٌ وانهدّ ثهلانُ
فاسأل بلنسيةً ما بال مرسيةٍ ... وأين شاطبة أم أين جيّانُ
وأين قرطبةٌ دار العلوم فكمْ ... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين حمص وما تحويه من نُزَهٍ ... ونهرها العذبُ فيّاضٌ وملآنُ
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبقَ أركانُ
يبكي الحنيفية البيضاء من أسفٍ ... كما بكى لفراقِ الإلف هيمانُ
على ديارٍ من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ
حيث المساجدُ قد صارت كنائسَ ما ... فيهنَّ إلا نواقسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهْيَ جامدة ... حتى المنابر ترثي وهْيَ عيدانُ
أعندكم نبأ عن أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهمْ ... أسرى وقتلى فما يهتزّ إنسانُ(١)

وفي عصرنا هذا رأيت في الجرائد كما رأى غيري صورة وزير يهودي في الحكومة الإسرائيلية يدخل إلى الجامع الأزهر كسائح ، ويبلغ به الصلف والكِبْر أن لا ينحني ليفك رباط حذائه ، ويركع تحت قدميه شيخ معمم ممن يعملون بالمسجد ، ليفك له الرباط .

وشاهدت كما شاهد غيري في كل مكان الجندي العراقي المسلم الأسير في حرب الخليج وهو يُقبّل يد وقدم الجندي الأمريكي ، ويتذلل أمامه ، ويسأله العفو والمغفرة ويردّ العلج الصليبي على الجندي العراقي برطانة صليبية وقحة : لا بأس عليك ، أو لا تخف . وكان التلفاز في ديار الغرب يكرر عرض هذه الصورة :

اليومَ عادتْ علوجُ الرومِ فاتحةً ... وموطنُ العربِ المسلوبُ والسَّلَبُ

(١) من قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس ، وهي من عيون الشعر الإسلامي

ماذا فعلنا غضبنا كالرجال ولم نَصْدق وقد صَدق التنجيمُ والكتبُ
فأطفأتْ شهبُ الميراجِ أنجمَنَا وشمَسنَا وتحدّت نارَهَا الخُطَبُ
وقاتلت دوننا الأبواقُ صامدةً أما الرجالُ فماتوا ثَمَّ أو هربوا
حكّامنا إن تصدوا للحمى اقتحموا وإن تصدى له المستعمر انسحبوا
هم يفرشون لجيش الغزو أعينَهم ويدّعون وثوبًا قبل أن يثبوا
الحاكمون وواشنطن حكومتهم واللامعون وما شعُّوا وما غربُوا
لهمْ شموخ المثنى ظاهرًا ولهمْ هوى إلى بابك الخرمي ينتسبُ
تنسى الرؤوس العوالي نار نخوتها إذا امتطاها إلى أسياده الذَّنَبُ
وما تزال بقلبي ألف مبكية من رهبة البَوْح تستحيي وتضطربُ
يكفيك أن عِدانا أهدروا دمنا ونحن من دَمنا نحسو ونحتلبُ(١)

وأما عن ذلّ المسلمين في البوسنة والهرسك .. فدماء القلب قبل العين لا تكفي لوصف المأساة .

يتحدث العشماوي عن سراييفو فيقول :

نناديكمْ وقد كَثُر النحيبُ نناديكمْ ولكنْ من يجيبُ
نناديكـمْ وآهـات الثكالـى تحدثكم بما فعل الصليـبُ
سراييفوا تقول لكم ثيابي ممزقة وجدرانـي ثقـوبُ
محاريبي تئن وقد تهاوى على جدرانها القصف الرهيبُ
وأوردتـي تقطـع لا لأنـي جنيتُ ولا لأني لا أتوبُ
ولكني رفعت شعار ديـنٍ يضيق بصدق مبدئه الكذوبُ
لنا في أرضنا نهرٌ ومـاءٌ وروضٌ في مرابعنا خصيبُ
لنا بيـتٌ وأطفـالٌ ولكـن محتْ آثار منزلنا الخطوبُ
بناتُ المسلمين هنا سبايا وشمس المكرمات هنا تغيبُ

(١) من قصيدة للشاعر اليمني البردوني .

تبيتُ كريمةً ليلى وتصحو — وقد ألغى كرامتها الغريبُ
تخبىء وجهها ياليت شعري — بماذا ينطق الوجه الكئيبُ
يموت الطفل في أحضان أم — تهدهده وقد جفّ الحليب
بكتْ حزنًا عليه بغير دمعٍ — وأين الدمعَ والظمأ النصيب

ويقول حفظه الله :

هذي الجراحُ أمَا تحرِّكُ ساكنًا — فيكم أما للغافلين عقولُ
أنا بينكمْ أُصلَى بنأرِ قذائفٍ — وتصاغ قصة حسرتي وتطولُ
أنا بينكمْ شعبٌ يذَبَّحُ جهرةً — والشمسُ في كبد السماء تجولُ
شعب يُغذّى بالأسى أطفالُه — ويشردون وللنساءِ عويلُ
أواهُ لو أبصرتمُ الطفل الذي — أمسى وهيكل عظمه مشلولُ
أواه لو أبصرتمُ الأم التي — ذبحت ولا كفنٌ ولا تغسيلُ
أين الأحبة يا صخور تحدثي — هل من أخٍ يمحو الأسى ويزيلُ ؟
أين الأحبة ؟ واستجاب مُنْصِرٌ — لندائِنا في كفِّه الإنجيلُ
أَوَ سنّ هذا في الحياة محمدٌ — أتلاهُ في قرآنِنا جبريلُ ؟
يا إخوة الإسلام هذا ثوبنا — بدموعنا ودمائنا مبلولُ
عذرًا أخا الإسلام – إنا أمة — ما زال يقلب رأسها التطبيلُ
أجفانُ أمتنا تُكحلُ بالقذى — أيراك جفنٌ بالقذى مكحولُ

يكفيك أن جماجم الأطفال تلعب بها الأقدام كالكرة .

يكفيك أن تغتصب المرأة مع زوجها وبنيها ، ويذبح أطفالها ، وترغم على الشرب من دمائهم .

يكفيك أن صبية بنت خمس سنين يهتك عرضها وتضاجع .

فكيف تضاجع الفتيات والفتيات مرتجفة
وكيف لبنت خمس سنين قلت : الآن يا امرأتي
ولكن الغد آت يا لئيم الصرب ، ويا خنزير الغرب .

○ الجهاد يُذهب الهمَّ والغمّ ○

قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالجهاد في سبيل الله ، فإنه باب من أبواب الجنة ، يُذهب الله به الهمّ والغمّ »[1] .

قال تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [التوبة : ١١١] .

من رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنًا ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله ، وأخذ الجنة عوضًا وثمنًا ، وما الذي فات المؤمن الذي سلّم نفسه وماله ويستعيض الجنة ، والله ما فاته شيء ، فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت ، سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله ، أم في سبيل سواه ، والجنة كَسْب ، كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة ، فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك .

ودع عنك رفعة الإنسان ، وهو يعيش له ، ينتصر إذا انتصر ؛ لإعلاء كلمته ، وتقرير دينه ، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه ، ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة ، ويستشعر في كل حركة ، وفي كل خطوة أنه أقوى من قيود الأرض ، وأنه أرفع من ثقلة الأرض ، والإيمان ينتصر فيه على الألم ، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة .

---

(١) صحيح الجامع ٣٩٤٢ ، رواه الطبراني في الأوسط عن أبي أمامة . قال الهيثمي : فيه عمرو بن الحصين وهو متروك ، والصحيحة ١٩٤١ ، ورواه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك وصححه ، وأقره الذهبي .

إن هذا وحده كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بإنطلاقه من إرهاق الضرورة ، وانتصار الإيمان فيه على الألم ، وانتصار العقيدة فيه على الحياة ، فإذا أضيفت إلى ذلك كله الجنة ، فهو يدعو إلى الاستبشار ، وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال .

إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه ، على عنصر القيد والضرورة .

بالجهاد الذي فيه الشُّقَّةُ والعناء ، يذهب الهم والغم ، والجزاء من جنس العمل ، ولكنها الشقة البعيدة التي تتناحر دونها الهمم الساقطة ، والعزائم الضعيفة ، ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة المنخوبة ، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة .

كثيرٌ همُّ أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة ، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان ، وفي كل مكان ، إنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خُيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالي ، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص .

وانظر كيف أذهب الله بالجهاد همّ ألب أرسلان وغمّه .

فقد عاد ألب أرسلان إلى عاصمة دولته خراسان ، وجيشه بحالة منهكة ، لا يتعدى ما بقي منه حيًّا الخمسة عشر ألفًا ، أكثرهم مسخن بالجراح فاقد لسلاحه ، وما زال بينه وبين عاصمته مسافة شاقة ، واعترضه رومانوس الرابع امبراطور بيزنطية ، وهو يقود جيشًا قيل : إنه ضمّ مائة ألف مقاتل ، وقيل : ستمائة ألف مقاتل ، وسرعان ما يعلم ألب أرسلان الخطر الزاحف نحوه ، ويدرك أن لا قِبل له بملاقاة رومانوس الرابع وجيشه اللجب بجيش منهك قليل العدد والعدة ، فيحاول أن يحتال على رومانوس ، فيغريه بقبول مال عظيم ، فيرفض رومانوس ، فيعرض عليه أن يقطعه بعض أراضيه ، فيرفض رومانوس ويصر على زحفه ، وجمع ألب أرسلان وجوه مملكته ، وقال : قد علمتم ما نزل بالمسلمين

فما رأيكم ؟ قالوا : رأينا لرأيك تبع ، وهذه الجموع لا قبل لأحد بها ، قال : وأين المفر ؟ لم يبق إلا الموت ، فموتوا كرامًا أحسن .. وإني قد عزمت بحول الله وتأيده على القتال ، وسأخرج لتوي بكفني وحنوطي ، فمن رغب عن الجهاد فدونه المسالك ، فليسلك أيها أقرب إلى نجاته ، ومن رغب في لقاء الله فليتحنط وليلبس كفنه وليلحق بي لملاقاة رومانوس .

قال ألب أرسلان : إني هممت ألَّا أقاتلهم إلا بعد الزوال ، قالوا : ولم ؟ قال : لأن هذه الساعة لا يبقى على وجه الأرض منبر إلا أدعوا لنا بالنصر ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فقالوا : افعل . فلما زالت الشمس صلى ، وقال : ليودع كل واحد صاحبه، وليوص، ففعلوا ذلك. وما هي إلا ساعة حتى كان ألب أرسلان يمتطي جواده ، ووراءه خمسة عشر ألف جندي قد تكفنوا جميعًا بقماش أبيض ، وقد فاحت منهم رائحة الحنوط ، وتحتدم المعركة بين الجيش المكفن وبين الجيش البيزنطي ، ويتدافع المسلمون بأكفانهم يطرقون أبواب الجنة بجماجم الكافرين .

وانتصر ألب أرسلان .. وأحضر رومانوس أسيرًا بين يديه وفي عنقه حبل ، فقال : ما كنت صانعًا لو ظفرت بي ؟ قال : أو تشك أنت في قتلك حينئذ ؟ قال ألب أرسلان : وأنت أقل في عيني من أن أقتلك ، اذهبوا فبيعوه ، فطافوا به جميع العسكر والحبل في عنقه ينادى عليه بالدراهم والفلوس ، وما يشتريه أحد ، حتى انتهوا في آخر العسكر إلى رجل ، فقال : إن بعتمونيه بهذا الكلب أشتريه ، فأخذوه وأخذوا الكلب وأتوا بهما ألب أرسلان ، فأخبروه بما صنعوا به ، وبما دفع فيه ، فقال : الكلب خير منه ؛ لأنه ينفع ، وهذا لا ينفع ، خذوا الكلب وادفعوا له هذا الكلب .. ثم إنه بعد ذلك أمر بإطلاقه ، وأن يجعل الكلب قرينه مربوطًا في عنقه ووكل به من يوصله إلى بلاده ، فلما وصل عزلوه من الملك وقتلوه[1] .

---

(١) مواقف بطولة من صنع الإسلام ، لزياد أبو غيمة ، وفضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٥٥٢ - ٥٥٣) .

القتل في سبيل الله حياة :

قال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون** ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وقال ﷺ : « إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة تحت العرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئًا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن تُرد أرواحنا في أجسادنا ، حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أنه ليس لهم حاجة تُركوا »(١) .

وقال ﷺ أيضًا : « إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلُق من ثمار الجنة »(٢) .

قال المناوي :

« إن أرواح الشهداء في طير خضر » ؛ أي في أجواف طير خضر ، وليس هذا بحصر ولا بحبس ؛ لأنها إما أن توسع عليها كالفضاء ، أو يُجعل في تلك الحواصل من النعيم ما لا يوجد في فضاء واسع .

« تعلُق » بضم اللام ؛ أي تأكل تلك الطير بأفواهها من ثمرة الجنة ، فتجد بواسطة ريح الجنة ولذتها وبهجتها وسؤددها ما لم تحط به العقول(٣) .

وقال ﷺ : « لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في جوف

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود .

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن كعب بن مالك انظر الجامع ١٥٥٥، السلسلة الصحيحة ٩٩٥.

(٣) فيض القدير (٢ / ٤٢٢) .

طير خضر ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، فتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنّا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ؟ فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم »[١] .

فانظر : كيف كان الجزاء من جنس العمل ..

إن الذي وارثه الحي الذي لم يزل ، فليس بميت وإن قتل .

وإن كانت العبدان للموت أُنشِئت فقتلُ امرئ في الله لا شكَّ أفضلُ

فوالله ، ما هي بدار مقام ، ولا محل اجتماع والتئام ، دار إن أضحكت اليوم أبكت غدًا ، وإن سرّت أعقب سرورها الردى ، وإن جلّت فيها النعم جميعًا ، حلت فيها النقم سريعًا ، إن أخصبت أجدبت ، وإن جمَّعت فرّقت ، وإن ضمَّت شتّتت ، وإن نقصت نغصت ، وإن أغنت عنت[٢] ، وإن زادت أبادت ، وإن عمّرت دمّرت ، وإن أسفرت أدبرت ، وإن راقت أراقت ، وإن صافت حافت[٣] ، وإن عمّت بنوالها غمّت بوبالها ، وإن جادت بوصالها جاءت بفصالها، قربها بعيد، وحبيبها طريد، شرابها سراب، وعَذْبها عذاب، دار الهموم والأحزان، والغموم والأشجان، والبين والفراق، والشقاء، والشقاق والوصب[٤]، والنصب والمشقة والتعب، كثيرها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وجليلها حقير، غزيرة الآفات، كثيرة الحسرات، قليلة الصفا، عديمة الوفا، لا ثقة بعهودها، ولا وفت لوعودها ، محبها تعبان ، وعاشقها ولهان[٥] ، والواثق بها خجلان ،

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس ، صحيح الجامع ٥٠٨١ ، تخريج الطحاوية ٣٩٣ ، تخريج المشكاة ٣٨٥٣ .

(٢) عناه : كلفه ما يشق عليه .

(٣) أي جارت وظلمت .

(٤) المرض .

(٥) الوله : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد .

قد سترت معايبها ، وكتمت مصائبها ، وأخفت نوائبها[١]، وخدعت بأباطيلها ، وغرت ببراطيلها[٢]، ونصبت شباكها[٣]، ووضعت أشراكها[٤]، وبهرجت زيفها[٥]، وجردت سيفها ، وأبدت ملامحها ، وسترت قبائحها ، ونادت الوصال الوصال ، أيها الرجال ، فمن رام وصالها ، وقع في حبالها ، وبدا له سوء حالها ، وعظم نكالها ، ووقع في أسرها ، لجهله بشرها ، وحاق به مكرها ، حيث لم يتبصر في أمرها ، فعضّ يديه ندمًا ، وبكى بعد الدمع دما ، وأسلمه ما طلب إلى سوء المنقلب ، وجهد في الفرار فما أمكنه الهرب .

فتيقظ لنفسك يا هذا قبل الهلاك وأطلق نفسك من أسرها قبل أن يعسر الفكاك ، وانهض على قدم التوفيق والسعادة عسى الله أن يرزقك من فضله الشهادة ، ولا يقعدك عن هذا الثواب ، سبب من الأسباب ، فذو الحزم السديد من جرّد العزم الشديد ، وذو الرأي المصيب من كان له في الجهاد نصيب ، ومن أخلد إلى الكسل ، وغرّه الأمل ، زلّت منه القدم ، وندم حيث لا يغني الندم ، وقرع السنّ على ما فرط وفات ، إذا شاهد الشهداء في أعلى الغرفات : ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدي السبيل** ﴾ [الاحزاب : ٤] . وحسبنا الله ونعم الوكيل[٦].

وإن سَفْرةً إليه بعدها تحط رحالنا عنده لمقاساتها أحلى من العسل..

يقول عز بن عبد السلام سلطان العلماء ، في كتابه أحكام الجهاد وفضائله عن قتل الشهداء .

أحيا الله فيه بعد مماتهم ، وعوضهم عن حياتهم التي بذلوها بأيديهم ، بحياة أبدية سرمدية ، لا يصفها الواصفون ، ولا يعرفها العارفون .

---

(١) جمع نائبة ، وهي المصيبة .
(٢) البراطيل : جمع برطيل بالكسر : الرشوة .
(٣) جمع شبكة ، وهي التي يصاد بها .
(٤) جمع شرك ، وهو حبالة الصيد .
(٥) بهرج الشيء : أباحه .
(٦) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ١٣١- ١٣٢) .

وكذلك لما فارقوا الأهل والأوطان أسكنهم في جواره ، وآنسهم بقربه ، بدلًا من أنس من فارقوه من أحبائهم لأجله ، فطوبى لمن حصل على هذا الجزيل ، في جوار الرب الجليل(١) .

وقال أيضًا :

لما بذل الشهداء أنفسهم لأجل الله ، أبدلهم الله حياة خيرًا من حياتهم التي بذلوها ، وجعلهم جيرانه ، يبيتون تحت عرشه ، ويسرحون من الجنة حيث شاءوا ، لما انقطعت آثارهم من السروح في الدنيا(٢) .

يقول ابن القيم :

إن الشهيد لما بذل حياته لله ، أعطاه الله سبحانه حياة أكمل منها ، عنده في محل قربه وكرامته .

من بذل شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه(٣) .

حياة غير الشهيد شوب النغص ، ممزوج بالغصص ، إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا وإن سرّت يومًا أحزنت شهورًا ، أولها مخاوف ، وآخرها موت ومتالف ..

أما الشهيد ، فقتلٌ آخره حياة ، ولكن أي حياة ..؟!!

غير الشهيد يحيا مع من ..؟!

والشهيد يحيا عند من ..؟! .

فارق عندية أهل الدنيا الذين يموتون ، فمن الله عليه بالحياة عند الحي الذي لا يموت ..

لما مزقت أجسادهم في دار الدنيا لله عز وجل ، فمن الله عليهم بحواصل

---

(١) أحكام الجهاد وفضائله ص٥٣ .

(٢) أحكام الجهاد ص٨٤ .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣ / ٢٧٣) .

طير خضر ..

حبست أقدامهم عن السعي ، فمن الله عليهم بأن يسرحوا في الجنة حيث شاءوا ، وهذه خاصية لهم .

يقول الأشقر :

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء ، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة ، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ، أما أرواح المؤمنين ، فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا يتنقل في أرجائها(١) .

لما حرموا رزق الدنيا ، فاستمر رزقهم ، وما أدراك بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار ؟!

الدنيا : إما مأكول ، أو مشروب ، أو مشموم ، والمأكول أفضله العسل ، وهو بزقة ذبابة ، والمشموم أفضله المسك ، وهو دم فأرة ، هذه هي الدنيا ، فهل يقاس عسل بعسل ؟!

عسل لم يقطف من الأزهار ، إنما يجري على رضراض الأنهار .

فاتتهم الحياة في الدنيا ، ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية في العقبى .

ويقال : هم أحياء ؛ لأن الخَلَفَ عنهم الله ، ومَنْ كان الخلف عنه الله ، لا يكون ميتًا .

قال قائلهم في مخلوق :

وإن يكنْ عنا مضى بسبيله   فما ماتَ منْ يبقى له مثلُ خَالِدِ

وهم أحياء بذكر الله لهم ، والذي هو مذكور الحق الجميل بذكره السرمدي ليس بميت .

ولئن فنيت بالله أشباحهم ، فقد بقيت بالله أرواحهم ، لأن من كان

---

(١) القيامة الصغرى ، للأشقر .

فناؤه بالله ، كان بقاؤه بالله .

عليهم رداء الهيبة ، وهم في ظلال الأنس ..

يقول سيد قطب :

إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق ، شهداء قتلى أعزاء أحياء قتلى كرامًا أزكياء ، فالذين يخرجون في سبيل الله ، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق ، هم عادة أكرم القلوب ، وأزكى الأرواح ، وأطهر النفوس ، إنهم أحياء ، فلا يجوز أن يقال عنهم : أموات لا يجوز أن يعتبروا أمواتًا في الحس والشعور ، ولا أن يقال عنهم : أموات بالشفة واللسان ، إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه ، فهم لا بد أحياء ، إنهم قتلوا في ظاهر الأمر ، وحسبما ترى العين ، ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة ، إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد ، وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع ، وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ، فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة ، والفكرة التي من أجلها قُتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد .

وحبوبُ سنبلة تجفُّ ستملأُ الوادي سنابل

وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد ، فهم ما يزالون عنصرًا فعالًا مؤثرًا في تكييف الحياة وتوجيهها ، وهذه هي صفة الحياة الأولى ، فهم أحياء أولًا بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس ، ثم هم أحياء عند ربهم .

أحياء ؛ ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى ، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها ، فالغسل تطهير للجسد الميت ، وهم أطهار بما فيهم من حياة ، وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر ؛ لأنهم بعد أحياء .

أحياء ؛ فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء .

أحياء ، يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء .

أحياء ؛ فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم ، ولا يتعاظمهم الأمر ، ولا يهولنها عظم الفداء .

ثم هم بعد أحياء مكرمون عند الله ، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه[١] .

ياليت شعري وما ارتفعت بنا هِمم إلى الجِنان وتالي القوم أوّابُ
إلى كواعب للأطراف قاصرة وظل طوبي وعطر الشدوِ ينسابُ
إلى قناديل ذهب علقت شرفًا بعرش ربي لمن قُتلوا وما غابوا

يقول صاحب الظلال :

حقيقة ضخمة في ذاتها ، وضخمة في آثارها ، إن الذين قُتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتًا بل أحياء .

أحياء عند ربهم لم ينقطعوا عن حياة الجماعة المسلمة مِن بعدهم ، ولا عن أحداثها ، فهم متأثرون بها ، مؤثرون فيها ، والتأثر والتأثير أهم خصائص الحياة .

فهم يرزقون عند ربهم .

وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله .

وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين .

وهم يحفلون بالأحداث التي تمر مِن خلفهم من إخوانهم .

فهذه خصائص الأحياء ، من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير .

فما الحسرة على فراقهم ؟! وهم أحياء موصولون بالأحياء والأحداث ، فوق ما نالهم من فضل الله ، وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة ، يستقبلون رزق الله بالفرح ؛ لأنهم يدركون أنه من فضله عليهم ، إن كان هناك حزن لفراقهم ، فالفرح كل الفرح فرحهم .

﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ [آل عمران : ١٥٧] فالموت في سبيل الله بهذا القيد وبهذا الاعتبار خير من الحياة ،

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٤٣ - ١٤٤) .

وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أغراضها الصغار ، من مال وجاه ومن سلطان ومن متاع ، خير بما يعقبه من مغفرة الله ورحمته ، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون[(١)].

قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال : يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويُحَلَّى حلة الإيمان ، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُجارُ من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويشفع في سبعين إنسانًا من أهل بيته »[(٢)] .

وعن كعب بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « أرواح الشهداء في صور طير خضر ، معلقة في قناديل الجنة ، حتى يرجعها الله يوم القيامة »[(٣)] .

قال القرطبي :

حديث كعب أصح من رواية من روى أن أرواحهم في جوف طير خضر ، قاله أبو عمر في الاستذكار ، وقال أبو الحسن القاس : أنكر العلماء قول من قال : في حواصل طير خضر ؛ لأنها رواية غير صحيحة ؛ لأنها إذا كانت كذلك فهي محصورة مضيق عليها .

قال القرطبي : الرواية صحيحة ؛ لأنها في صحيح مسلم ، فيحتمل أن تكون الفاء بمعنى على ، فيكون المعنى : لأرواحهم على جوف طير خضر ، كما قال تعالى : ﴿ **ولأصلبنكم في جذوع النخل** ﴾ [طه : ٧١] ؛ أي على جذوع النخل ، وجائز أن يسمى الظهر جوفًا ؛ إذ هو محيط به ، ومشتمل عليه . قال

---

(١) في ظلال القرآن (١ / ٥١٦) .

(٢) صحيح الجامع ٥٠٥٨ رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معدي كرب ، أحكام الجنائز للألباني (٣٥ - ٣٦) .

(٣) رواه عبد الرزاق بسندٍ صحيح .

أبو محمد عبد الحق : وهو حسن جدًّا[١] .

قال ابن النحاس :

في هذا الكلام كله نظر فإن حديث ابن مسعود صحيح لا شك فيه ، فلا يلتفت إلى قول من قال : إنه غير صحيح ، وأيضًا فإنا لا نسلم أن أرواحهم محصورة لكونها في جسد ؛ فإنه يلزم من ذلك أن تكون أرواح أهل الجنة في الجنة محصورة بأجسادها ، وأن يكون جعفر - رضي الله عنه - محصورًا بالجسد الذي رآه النبي ﷺ فيه ، وهو سيد الشهداء ، ولا ضرورة تدعو إلى التأويل الذي أوله أبو محمد - رحمه الله - بل الذي يظهر لي - والله أعلم - من الحكمة في جعل أرواحهم في هذه الأجساد أنهم لما جادوا بأجسادهم الكثيفة لله تعالى ، وبذلوها في حُبِّه ، وعرّضوها للآلام والمشاق الشديدة ، وسمحوا بها للفناء امتثالًا لأمر الله وطلبًا لمرضاته ، عوّضهم الله عنها أجسادًا لطيفة في دار النعيم الباقي ، يأكلون بها ويشربون ، ويسرحون في الجنة حيث يشاءون .

ولما كان ألطف الحيوانات أجسامًا الطير ، وألطف الألوان الأخضر ، وألطف الجمادات الشفافة الزجاج ، كما قال تعالى : ﴿ **الزجاجة كأنها كوكب دري** ﴾ [النور : ٣٥] وإن كانت من ذهب ، كما في حديث ابن عباس ، فهو المُفَرِّح طبعًا وخاصية ، وناهيك بذهب الجنة مفرِّحًا ، فلذلك - والله أعلم - جعل الله أرواح الشهداء في ألطف الأجساد ، وهو الطير الملون بألطف الألوان ، وهو الخضرة ، يأوي إلى ألطف الجمادات ، وهي القناديل المنورة والمفرِّحة ، في ظل اللطيف الرحيم ، لتكمل لها لذة النعيم إلى جوار الرب الكريم ، فكيف يُظن أنها محصورة ؟! كلا والله ، إن هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليشمر المشمرون ، وعليه فليجتهد المجتهدون[٢] .

فإن قيل : إذا كانت روح كل مؤمن على صورة طير في الجنة ، كما جاء

---

(١) التذكرة للقرطبي ص١٩٧ .

(٢) فضائل الجهاد لابن النحاس ٧٣١ - ٧٣٢ .

في حديث كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « نسمة المؤمن طائر يعلق من شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه »(١) .

فبماذا يتميز الشهيد ؟؟ فالجواب من وجوه :

الأول : ما ذكره ابن كثير في تفسيره في هذا الحديث : إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة ، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر ، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بنفسها(٢) .

فهي كالراكبة بالنسبة إلى أرواح المؤمنين وهذا حسن غير أنه يعارض حديث كعب بن مالك ، فإن فيه « أرواح الشهداء في صور طير خضر » .

الثاني : وهو أحسن منه ، فيه أن المراد بذلك روح المؤمن الشهيد ، دون غيره من عموم المؤمنين .

ويعضد ذلك ما حكاه القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه سراج المريدين من اجتماع الأمة على أنه لا يتعجل الأكل والنعيم إلا الشهيد في سبيل الله .

الثالث : أنه قد روى «تَعلَق»(٣) بفتح اللام ، قال القرطبي : وهو الأكثر، ومعناه تسرح(٤) .

يقول ابن النحاس : ومن خط القرطبي فقلت : فيكون المعنى أن روح المؤمن تطير في شجر الجنة وتسرح بينها إلى يوم القيامة ، لا أنها على شكل طائر يأكل ويشرب ، بخلاف روح الشهداء ، فإنها في جوف طير أخضر ، أو على صورة طير أخضر ، تأكل وتشرب وتتنعم ، وتأوي إلى قناديل في ظل العرش .

---

(١) حديث عظيم صحيح ، اجتمع في سنده ثلاثة من الأئمة الأربعة مالك والشافعي وأحمد .

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ١٤٢) .

(٣) تعلق : بضم اللام . تأكل .

(٤) التذكرة للقرطبي ص٩٣ .

○ الشهيد لا يجد من ألم القتل إلا مس القرصة ○

قال رسول الله ﷺ : « الشهيد لا يجد ألم القتل ، إلا كما يجد أحدكم مس القرصة »(١) .

وقال أيضًا : « الشهيد لا يجد مس القتل ، إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها »(٢) .

وقال : « ما يجد الشهيد من مس القتل ، إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة »(٣) .

قال المناوي في فيض القدير : « إلا كما يجد أحدكم مس القرصة » عبّر بأداة الحصر ؛ دفعًا لتوهم تصور أن ألمه يفضل على ألمها ، وهذه تسلية لهم عن هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم ، وتهييج الصبر على وقع السيوف ، واقتحام الحتوف ، فالله تعالى يهون على الشهيد الموت ويكفيه سكراته وكربه .

○ الشهيد لا يُفتن في قبره ولا يُعذب ○

قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال .. ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ... » .

ثبت في الصحيح : أن المرابط في سبيل الله لا يفتن في قبره .

---

(١) صحيح : صحيح الجامع ٣٦٣٩ ، رواه الطبراني عن أبي قتادة ، تخريج الترغيب (٢/ ١٩٢) .

(٢) صحيح : صحيح الجامع ٣٦٤٠ ، رواه النسائي عن أبي هريرة ، تخريج المشكاة ٣٨٣٦ .

(٣) رواه الترمذي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٨٩ .

عن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل ميت يُختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله ، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمن من فتنة القبر »(١) .

فالشهيد أولى وأحرى ؛ لأنه أفضل منه ، وما نال المرابط ما ناله من الفعل إلا بتعرضه للشهادة وتوقعه لها ، فكيف لا يعطى ذلك الفضل من نالها(٢) .

إن الفتنة في القبر بسؤال المَلَكين ، إنما هي لاختبار ما عند المرء من حقيقة الإيمان والتصديق ، ولا شك بأن من وقف للقتال ، ورأى السيوف تلمع وتقطع ، والأسنة تبرق وتخرق ، والسهام ترشق وتمرق ، والرءوس تندر ، والدماء تثعب ، والأعضاء تتطاير ، والناس بين قتيل وجريح وطريح ، فيثبت على ذلك ، ولم يولِّ الدبر ، ولم ينهزم ، وجاد بنفسه لله تعالى إيمانًا به ، وتصديقًا بوعده ووعيده ، كما وصف الله تعالى المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٢] فيكفيه هذا امتحانًا لإيمانه ، واختبار له وفتنة ، إذ لو كان عنده شك أو ارتياب لولى الدبر ، وذهل عما هو واجب عليه من الثبات ، وداخله الشك والارتياب ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا** ﴾ [الأحزاب : ١٢] .

فيكفي الشهيد هذا الامتحان من سؤال الفتان ... والجزاء عند الله من جنس العمل .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم وأبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين . وفيه حميد بن هانئ أبو هانئ ، وهو من رجال مسلم ، وإنما روى له البخاري في الأدب المفرد . وقال الحاكم في مكان آخر لسند فيه حميد : على شرط مسلم . ووافقه الذهبي .

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٤ / ٢٥٧) .

هذه الآية ﴿ **ونُفِخ في الصور فصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله**﴾ [الزمر: ٦٨] مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: «هم شهداء الله»(١).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ : « سألت جبريل عن هذه الآية : ﴿ **ونُفِخ في الصور فصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء ، ثُنَيَّة الله تعالى ، متقلدون أسيافهم حول عرشه »(٢) .

فأين صعق السيوف ، من صعق القيامة ..؟!!

إن للموت لسكرات ، وإن هول المطلع شديد ، وإن للقبر عذابًا لا ينجو منه إلا الصالحون ، وإن فيه لسؤال المَلَكين الفَاتِنَيْن ، ثم بعد ذلك الخطر العظيم ، إما سعيدًا فإلى النعيم المقيم ، وإما شقيًّا فإلى عذاب الجحيم ، والشهيد آمن من جميع ذلك ، لا يَخْشَى شَيْئًا من هذه المهالك لا يجد إلا مسّ القرصة ، فما يقعدك عن انتهاز هذه الفرصة ؟!.

ثم تجاوز في القبر من العذاب ، وتفوز عند الله بحسن المآب ، وتأمن من فتنة السؤال ، وما بعد ذلك من الشدائد والأهوال ، فكم بين هذا القتل الكريم وبين الموت الأليم ، كم بين هذا ، ومن هم ﴿ ... **أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألَّا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩ – ١٧٠] قد أمِنوا من عظيم الأهوال والكربات ، وسكنوا بأجلّ المحالّ في أعلى الغرفات ، وكرعوا من النعيم أكوابا ، وادّرعوا من التنعيم أثوابا ، ومُتعوا بجنان الفردوس مستقرًّا ومآبًا ، وتمتعوا بحورٍ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك في التفسير، وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح : أورده السيوطي في الجامع ، وقال : رواه أبو يعلى والدارقطني في الأفراد والحاكم وابن مردويه في التفسير والبيهقي في البعث عن أبي هريرة . وزاد على رواية الحاكم : « هم الشهداء ، ثنية الله تعالى ... حول العرش » . وصححه السيوطي والحاكم . انظر فيض القدير (٤ / ٧٨ – ٧٩) .

عين كواعب أترابًا ، أرواحهم في جوف طير خضر تجول في الجنان ، تأكل وتشرب وتأوي إلى قناديل معلقة في عرش الرحمن ، يتمنون الرجوع إلى هذه الدار ؛ ليقتلوا في سبيل الله عشر مرات ، لما بهرهم من ثواب الله الجزيل للجريح في سبيله والقتيل[١] .

○ ظل الملائكة على الشهيد ، والجنة تحت بارقة السيوف[٢] ○

وانظر .. لمّا تحمّل الشهيد حرّ السيف ظللته الملائكة .

لما تحمل حرّ السيف وظللته السيوف يكون مأواه الجنة حيث الظل الممدود .

في حديث جابر في البخاري : جيء بأبي إلى النبي ﷺ وقد مُثل به ، ووضع بين يديه ، فذهبت أكشف عن وجهه ، فنهاني القوم ، فسمع صوت نائحة ، فقيل : ابنة عمرو ، أو أخت عمرو ، فقال : « لم تبكي ؟ – أو لا تبكي – ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها » .

قال ﷺ : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »[٣] .

وقال عمار بن ياسر يوم صفين : الجنة تحت الأبارقة[٤] .

○ الشهيد لمّا ترك أهله وأزواجه يزوج من الحور العين ○

وانظر إلى الشهيد ، لمّا اغبر بالتراب ، تُزِيل الحورُ عنه التراب .

ولما ترك الأزواج ، وقرة عينه من الدنيا ، يوفر له هذا النصيب ، وليس لأحد نصيبه .

---

(١) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٥٩٠) .

(٢) ترجمة البخاري ، كتاب الجهاد (٦ / ٣٨ – ٣٩) فتح الباري .

(٣) البخاري في الصحيح فتح الباري ، كتاب الجهاد (٦ / ٤٠) .

(٤) رواه الطبراني بسند صحيح ، انظر فتح الباري (٦ / ٥٦) .

قال ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال ... ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ... » .

عن مجاهد قال : قام يزيد بن شجرة في أصحابه فقال : إنها قد أصبحت عليكم ما بين أخضر ، وأحمر ، وأصفر ، وفي البيوت ما فيها ، فإذا لقيتم العدو غدًا فقدمًا قُدمًا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما تقدم رجل من خطوة إلا تقدم إليه الحور العين[1] فإن تأخر استترن منه ، وإن استشهد كانت أول نفحة كفارة خطاياه ، وتنزل إليه ثنتان من الحور العين فتنفضان عنه التراب ، وتقولان له : مرحبًا قد آن لك ، ويقول : مرحبًا قد آن لكما »[2].

وروى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : « إذا التقى الصفان أهبط الله الحور العين إلى السماء الدنيا فإذا رأين الرجل يرضين قُدْمه قلن : اللهم ثبته ، وإن فر احتجبن منه ، فإن هو قتل ، نزلتا إليه ، فمسحتا التراب عن وجهه وقالت : اللهم عفّر من عفره وترّب من ترّبه » والجزاء من جنس العمل ...

وعن أنس رضي الله عنه : أن رجلًا أسود أتى النبي - ﷺ - فقال له : يا رسول الله : إني رجل أسود منتن الريح ، قبيح الوجه لا مال لي ، فإن أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل فأين أنا ؟ قال : « في الجنة » فقاتل حتى قتل فأتاه النبي - ﷺ - فقال : « قد بيّض الله وجهك ، وطيّب ريحك ، وأكثر مالك » . وقال لهذا أو لغيره : « لقد رأيت زوجته من الحور العين ، نازعته جبة له من صوف تدخل بينه وبين جبته »[3].

---

(١) والجزاء من جنس العمل .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، وابن الأثير في أسد الغابة ، ورواه ابن أبي شيبة موقوفًا مختصرًا بإسناد صحيح ، وعبد الرزاق موقوفًا بإسناد صحيح ، والطبراني ، قال الهيثمي : رواه الطبراني من طريقين ، رجال أحدهما رجال الصحيح .

(٣) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والبيهقي في الشعب ، وقال في آخره : فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو مقتول فقال : « لقد رأيت زوجتيه من الحور العين ، تتنازعان ، تدخلان فيما بين جلده وجبته » .

انظر ...

لمّا ترك المجاهد الفراش والأزواج ، جاد عليه الملك الوهاب ، بكثرة الأزواج من الحور العين ، والجزاء عند الله من جنس العمل ..

ترك نساء الدنيا ، التي يروم منها غيرُه أقذر ما فيها ، ويخاف هجرها ، ويخشى تجافيها ، يحمله حبها على الكدّ والتعب والشقاء الشديد والنصب ، توردك الموارد المهلكة ، وترضى في أدنى هواها بهلاكك وما أوشكه ، ففاز بوصال من خُلِقت من النور ، ونشأت في ظلال القصور ، مع الولدان والحور ، في دار النعيم والسرور ، والله لا يجفّ دم الشهيد حتى تلقاه ، وتستمتع بشهود نورها عيناه ، حوراء عيناء ، جميلة حسناء ، بكر عذراء ، كأنها الياقوت لم يطمثها إنس قبلك ولا جان ، كلامها رخيم ، وقدّها قويم ، وشعرها بهيم[1] ، وقدرها عظيم ، وجفنها فاتر ، وحسنها باهر ، وجمالها زاهر ، ودلالها ظاهر ، كحيل طرفها ، جميل ظرفها ، عذب نطقها ، عجب خَلْقُها،حسن خُلُقها ، زاهية الحلى ، بهية الحلل ، كثيرة الوداد ، عديمة الملل ، قد قصرت طرفها عليك فلم تنظر سواك ، وتحببت إليك بكل ما وافق هواك ، لو برز ظفرها لطمس بدر التمام ، ولو ظهر سوارها ليلًا لم يبقَ في الكون ظلام ، ولو بدا معصمها لسبى كل الأنام ، ولو اطلعت بين السماء والأرض لملأ ريحها ما بينهما ، ولو تفلت في البحر المالح ، عاد كأعذب الماء ، كلما نظرت إليها ازدادت في عينيك حسنًا ، وكلما جالستها زادت إلى ذلك الحسن حسنًا ، أيجمل بعاقل أن يسمع بهذه ويقعد عن وصالها ؟! كيف وله في الجنة من الحور العين أمثال أمثالها ؟!

واعلم أن فراق زوجتك تلك لابد لك منه ، وكأن قد وقع ، والجنة إن شاء الله تجمع بينكما ونعم المجتمع ، فتجدها في الآخرة أجمل من الحور العين بما لا يعلمه إلا رب العالمين .

فأعرض عنها اليوم، فسيعوضك الله عنها، وإن كانت من أهل الجنة فلابد لك منها.

---

(١) بهيم : ما كان لونًا واحدًا ، لا يخالطه غيره سوادًا كان أو بياضًا .

○ لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم ○

قال رسول الله ﷺ : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم في منخري مسلم أبدًا »(١) .

وقال ﷺ : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم في جوف عبد أبدًا ، ولا يجتمع الشحُّ والإيمان في قلب عبدٍ أبدًا »(٢).

وقال ﷺ : « من راح روحة في سبيل الله ، كان له بمثل ما أصابه من الغبار مسكًا يوم القيامة »(٣) .

وقال ﷺ : « ما اغبرتا قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسه النار »(٤) .

قال محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة : أملى عليّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس ، وأرسلها معي إلى مكة إلى الفضيل بن عياض سنة سبع وسبعين ومائة وهي :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يتعبُ خيلَه في باطلٍ ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريحُ العبيرِ لكم ونحن عبيرُنا ... رهجُ السنابكِ والغبارُ الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يَكْذِبُ
لا يستوي وغبار خيلِ الله في ... أنف امرىء ودخان نارٍ تلهبُ

---

(١) صحيح : انظر صحيح الجامع ٧٤٩٣ ، رواه النسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة ، تخريج المشكاة ٣٨٢٨ .

(٢) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن أبي هريرة انظر صحيح الجامع ٧٤٩٢ ، وتخريج المشكاة ٣٨٢٨ .

(٣) حسن: رواه ابن ماجة (الضياء عن أنس انظر صحيح الجامع ٦١٣٦، والصحيحة ٢٣٣٨).

(٤) رواه البخاري : فتح الباري (٦ / ٣٥) .

هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت ، لا يَكْذِب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه ، فلما قرأه ذرفت عيناه ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ، ونصحني .

قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، لا يجتمع على عبدٍ غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم »(١).

إذا كانت مشقة الغبار عاصمة من عذاب النار ، فما الظن بمن بذل ماله وغرّر بنفسه في قتال الكفار .

○ الجرح في سبيل الله تعالى ○

قال رسول الله ﷺ : « زملوهم بدمائهم ، فإنه ليس كلم يُكلم في الله إلا وهو يأتي يوم القيامة يدمى ، لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك »(٢) .

وقال ﷺ : « كل كَلْم يُكْلَمه المسلم في سبيل الله تعالى ، يكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت تَفجَّرُ دمًا ، واللون لون دم ، والعَرْفُ عَرْفُ مسك »(٣) .

وقال ﷺ : « لا يُكلم أحدٌ في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا وجاء يوم القيامة وجرحه يثعَبُ دمًا : اللون لون دم ، والريح ريح مسك »(٤).

وقال ﷺ : « ما من مكلوم يُكلم في الله ، إلا وجاء يوم القيامة ، وكَلْمهُ يدمى ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك »(٥) .

وقال أيضًا ﷺ : « ... ومن جرح في سبيل الله ، أو نُكِب نكبة فإنها

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والنسائي، وأحمد، والترمذي، وقال : حديث حسن صحيح، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٢) صحيح ، رواه النسائي عن عبد الله بن ثعلبة انظر صحيح الجامع ٣٥٦٧ ، وأحكام الجنائز ٦٠ ، الإرواء ٧٠٥ ، تخريج المشكاة ٢٩٢٤ والكلم : الجرح .

(٣) رواه البيهقي عن أبي هريرة . والعرْف : الرائحة .

(٤) رواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة ، ورواه أحمد ومسلم انظر صحيح الجامع ٧٦٤٩ . وهو صحيح ، ويثعب دمًا ؛ أي يتفجر ويجري .

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة .

تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت ، لونها لون الزعفران ، وريحها ريح المسك ، ومن خرج به جراح في سبيل الله كان عليه طابع الشهداء »[١] .

قال عز الدين بن عبد السلام :

إنما يجيء الجريح كذلك يوم القيامة ، تفضيلًا له على أهل الموقف ، ونداءً عليه بأنه بذل نفسه حتى جرح في سبيل الله[٢] .

وقال ابن دقيق العيد في شرح العمدة :

مجيئه يوم القيامة مع سيلان الجرح فيه أمران :

أحدهما : الشهادة على كالمه[٣] .

والثاني : إظهار شرفه لأهل المشهد والموقف ، بما فيه من رائحة المسك الشاهدة بالطيب[٤] .

وعن معاذ بن جبل ، قال رسول الله ﷺ : « من جرح جرحًا في سبيل الله ، أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت ، لونها الزعفران ، وريحها المسك »[٥] .

قال ابن حجر :

عرف بهذه الزيادة أن الصفة المذكورة لا تختص بالشهيد ، بل هي خاصة لكل من جرح ، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الجرح هو ما يموت صاحبه بسببه قبل اندماله لا ما يندمل في الدنيا ، فإن أثر الجراحة وسيلان الدم يزول ، ولا ينفي ذلك أن يكون له فضل في الجملة ، لكن الظاهر أن الذي يجيء يوم القيامة « وجرحه يثعب دمًا » من فارق الدنيا وجرحه كذلك ، ويؤيده ما وقع عند ابن حبان من حديث معاذ المذكور : « عليه طابع الشهداء » وقوله : « كأغزر

(١) رواه أحمد ، وابن حبان عن معاذ ، انظر صحيح الجامع ٦٢٩٢، تخريج المشكاة ٣٨٢٥.
(٢) أحكام الجهاد وفضائله لابن عبد السلام . (٣) جارحه .
(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام مع حاشية العدة (٤ / ٥١٥) .
(٥) قال ابن حجر في فتح الباري (٦ / ٢٥) : لأصحاب السنن ، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم .

ما كانت » . في قوله : « كهيئتها » ؛ لأن المراد لا ينقص شيئًا بطول العهد[١] .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم ، يطير بهما مع الملائكة »[٢] .

إن الجرح في سبيل الله ، وكما قال رسول الله ﷺ : لما دميت أصبعه في بعض المشاهد : « هل أنت إلا إصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت » .

فكل شيء ناقص في عرف الدنيا إذا انتسب إلى طاعة الله ورضاه ، فهذا هو الكامل في الحقيقة .

وقد قال ﷺ : « رأيت جعفر بن أبي طالب ملكًا يطير في الجنة ، ذا جناحين يطير بهما حيث شاء ، مقصوصة قوادمه[٣] بالدماء »[٤] .

وانظر .. إلى أمين هذه الأمة أبي عبيدة بن الجراح لما نزع يوم أحد الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله ﷺ من المغفر فانتزعت ثنيتاه ، فحسنتا فاه ، فقيل : ما رئي فم قطُّ أحسن من فم أبي عبيدة[٥] .

إن كان هذا في دار الدنيا فكيف في الآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

ومن أعجب ما روي عن سلفنا الصالح : إن حياشا بن قيس القشيري ، لما شهد اليرموك ، قتل من العلوج خلقًا كثيرًا ، وقطعت رجله يومئذ وهو لا يشعر بقطعها ، فلما انفصل من الحرب ، جعل ينشدها ، وفيه يقول سوار بن أوفى :

ومنا ابن عتاب وناشد رجله ومنا الذي أدّى إلى الحي حاجبًا

يعني حاجب بن زرارة ، وهذا شيء لم يسمع مثله[٦] .

---

(١) فتح الباري (٦ / ٢٥) .

(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد والحاكم عن البراء ، وصححه الألباني ، انظر صحيح الجامع ١٥٥٥ ، والسلسلة الصحيحة ٩٩٥ .

(٣) قوادم الطائر ، مقاديم ريشه ، وهي عشر في كل جناح .

(٤) إسناده حسن ، وانظر مجمع الزوائد في المناقب قال الهيثمي : رواه الطبراني عن ابن عباس بإسنادين أحدهما حسن .

(٥) فضائل الجهاد لابن النحاس (٢/٩٧٨). (٦) فضائل الجهاد لابن النحاس (١/٥١٥).

○ فضل السهر في سبيل الله ○

قال رسول الله ﷺ : « حُرِّمت النار على عين بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله »(١) .

من سهر في سبيل الله فقد ترك غرضه من النوم طاعة لله بما يتجشَّمُهُ من خوف العدو ، ولذلك حرمت عليه النار(٢) .

○ الرِّبَاط(٣) ○

قال رسول الله ﷺ : « رباط شهر خير من صيام دهر ، ومن مات مرابطًا في سبيل الله ، أمن من الفزع الأكبر ، وغُدي عليه برزقه ، ورِيحَ من الجنة ، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله »(٤) .

أما الرباط ، وهو ملازمة المحلّ الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين ، وإن كان وطنه بشرط نية الإقامة به لدفع العدو ، فارسًا كان أو راجلًا .

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : فرض الجهاد لسفك دماء المشركين ، والرباط لحقن دماء المسلمين ، وحقن دماء المسلمين أحبّ إليّ من سفك دماء المشركين(٥) .

---

(١) أخرجه البيهقي والدارمي، وابن أبي شيبة والحاكم وأحمد وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي .

(٢) أحكام الجهاد وفضائله لعز الدين بن عبد السلام .

(٣) قال المناوي في فيض القدير (٣ / ١٢) : الرباط المرابطة ، وهو أن يربط هؤلاء خيولهم في ثغرهم وهؤلاء خيولهم في ثغرهم ويكون كل منهم معدًّا لصاحبه متربصًا لقصده ، ثم اتسع فيه فأطلقت على ربط الخيل واستورادها لغزو أو عدو حيث كان وكيف كان ، وقد يتجوز به للمقام بأرض والتوقف فيها .

(٤) رواه الطبراني عن أبي الدرداء ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٤٧٣ .

(٥) الجامع لمسائل المدونة (١٥٤ / ١) .

عن سلمان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل ، وأجري عليه رزقه ، وأمن الفتان »[١] .

وعن عثمان - رضي الله عنه - رباط يوم في سبيل الله ، خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل .

وعن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله ، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر »[٢] .

قال القرطبي :

حديث سلمان ، وحديث فضالة ، دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت ، كما جاء في حديث أبي هريرة « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم . فإن الصدقة الجارية ، والعلم المنتفع به ، والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم ، وموت الولد ، والرباط أيضًا أجره مضاعف إلى يوم القيامة ؛ لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة ، وهي غير موقوفة على سبب ، فتنقطع بانقطاعه ، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة ؛ وهذا لأن أعمال البرِّ كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو ، والتحرز منهم بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام . انتهى كلامه . وهو مليح جدا فتأمله[٣] .

قال المناوي :

---

(١) رواه مسلم ، قال القاضي عياض : رواه الأكثرون بضم الفاء جمع فاتن .

(٢) رواه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم وقال : على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٣) تفسير القرطبي (٤ / ٣٢٥) ، فضائل الجهاد لابن النحاس (١/٣٧١-٣٧٢) .

« رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه » لا يعارض رواية : « خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » ؛ لاحتمال إعلامه بالزيادة ، أو لاختلاف العاملين ، أو العمل أو الإخلاص أو الزمن .

« جرى عليه أجر عمله » الذي كان يعمله حال رباطه ؛ أي لا ينقطع أجره ، وهذه فضيلة لا يشركه فيها أحد ولا ينافيه عد جمع نحو عشرة ممن يجري عليهم ثوابهم بعد موتهم ؛ لأن المجرى على هذا ثواب عمله وثواب رباطه ، وأما أولئك فشيء واحد .

قال الطيبي : ومعنى « جرى عمله عليه »: أن يقدر له من العمل بعد موته كما جرى منه قبل الممات(١) .

وتأمل يا أخي .. كيف كان الجزاء من جنس العمل ..

من مات مرابطًا جرى عليه عمله ، رباط ووقف النفس على دين الله ، يقابله جري لثواب العمل ..

فتأمل هذه .. رباط نفس وجسد ، وجري رزق وعمل ، والجزاء من جنس العمل .

المرابط أمام العدو يفزع لأي شاردة منه ، ويخاف أن يغير على بلاد المسلمين ، فيأمن الفزع الأكبر ، وهذا جزاء من جنس العمل .

هذا احتبست قدماه عن سعي الدنيا طلبا للرزق ، فغُدي عليه برزقه .

هذا لا يستنشق إلا الغبار ، ولذا رِيحَ من الجنة ، جزاءً وفاقًا .

قال أسد بن الفرات : ما من أحد إلا يرى حسناته وسيئاته يوم القيامة ، إلا المرابط فإنه يرى حسناته ، ولا يرى سيئاته ، وذلك أنه تمحى عنه سيئاته ، وتكتب حسناته(٢) .

---

(١) فيض القدير (٤ / ١٢) .

(٢) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٣٩٧) .

روى ابن المبارك: أن الحارث[(١)] بن هشام - رضي الله عنه - وهو أخو أبي جهل لأبويه ، خرج من مكة للجهاد ، فجزع أهل مكة جزعًا شديدًا ، فلم يُر أحد طَعِم إلا خرج يُشيِّعه ، فلما كان بأعلى البطحاء وقف، ووقف الناس حوله يبكون ، فلما رأى جزعهم رق ، فبكى ، وقال : يأيها الناس ، إني والله ، ما خرجت رغبة بنفسي عن أنفسكم ، ولا اختيار بلد عن بلدكم ، ولكن كان هذا الأمر فخرجت رجال ، والله ما كانوا من ذوي أنسابها ، ولا في بيوتاتها فأصبحنا ، والله لو أن جبال مكة ذهبًا فأنفقناها في سبيل الله ، ما أدركنا يومًا من أيامهم ، والله لئن فاتونا في الدنيا لنلتمس أن نشاركهم به في الآخرة ، ولكنها النقلة إلى الله عز وجل ، وتوجه إلى الشام فأصيب شهيدًا .

وقال مصعب بن عبد الله : خرج الحارث بن هشام مع أهله إلى الشام ، فتبعه أهل مكة يبكون ، فرق وبكى ، ثم قال : أما لو كنا دارًا بدار ، وجارًا بجار ، ما أردنا بكم بدلًا ، ولكنها النقلة إلى الله عز وجل ، فلم يزل حابسًا نفسه ومَنْ معه بالشام مجاهدًا حتى ختم الله له بخير .

وكون الجزاء من جنس العمل يوضحه بأجلّ عبارة الحارث بن هشام : النقلة إلى الله عز وجل . النقلة إلى الكريم ...

من أراد أن يعلم ما له عند الله ، فلينظر ما لله عنده .

○ الخيـــل ○

حصانك في سيناء يشربُ دمعه   وجندك في حطين صلوا وكبروا

يقول الشاعر :

---

(١) ذكر المزي : أن الحارث شهد بدرًا وأحدًا مشركًا ، وأسلم يوم الفتح ، وكان شريفًا كبير القدر ، واستشهد يوم اليرموك .

جوادُ دينك في الميدان منطلقٌ وبين عينيه من إصراره ألَقُ
صهيله نغمٌ يُصغي الزمان له ونقعه لحجاب الشمس يخترقُ
تشدو حوافره لحنًا يهش له قلب التراب وتسترخي له الطرقُ
يسابق الريحَ في درب الإباء وكم خيلٍ سواه إلى الأهواء تستبقُ
جواد دينك يجري النور في دمه وتشرئبُّ إلى غاراته العنقُ
تكفُّ عن وجهه الصحراء ما حملت من سَفْيها دينا عن ركضه الشفقُ
يُقضُّ مضجعُ كلِّ الصافنات إذا ثار الغبار وطارت نحوه الحَدَقُ
مجاهدٌ والأماني البيض لاهثة وراءه وبحار الشوق تصطفقُ
إذا تلفَّتَ غنّى فجر غُرَّته لحنَ الضياء وأرخى طرفَه الغسقُ
وسافر الليلُ مبهورًا وأعقبه فجر تحفَّزَ لاستقباله الأُفقُ

قال تعالى مقسمًا بالخيل : ﴿ **والعاديات ضبحًا** ﴾ [العاديات : ١] .

قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وعطية وقتادة : الخيل التي يُغْزى عليها ، ويغار بها على العدوّ .

ولو لم يكن من فضل الخيل إلا إضافتها إلى الرحمن سبحانه تشريفًا لها وتكريمًا ، لكان كافيًا ، يا خيل الله ، اركبي ..

قال رسول الله ﷺ : « من احتبس فرسًا في سبيل الله ، إيمانًا بالله ، وتصديقًا بوعده ؛ كان شِبَعُهُ ورِيُّهُ ورَوْثُهُ وبَوْلُهُ حسنات في ميزانه يوم القيامة »(١) .

يريد ثواب ذلك ، لأن الأرواث بعينها توزن .

وقال ﷺ : « من ارتبط فرسًا في سبيل الله ، ثم عالج علفه بيده ، كان له بكل حبةٍ حسنة »(٢) .

(١) رواه أحمد والبخاري والنسائي عن أبي هريرة - الإرواء ١٥٨٥ .

(٢) رواه ابن ماجة وابن حبان عن تميم الداري ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٨٨٤ ، الروض النضير ١٧٥ ؛ ورواه أحمد والطبراني في الأوسط والدولابي .

وقال ﷺ : « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للإنسان ، فأما فرس الرحمن ، فالذي يرتبط في سبيل الله ، فعلفه ورَوثه وبَولهُ في ميزانه ، وأما فرس الشيطان فالذي يُقامَر أو يراهَنُ عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها يلتمس بطنها ، فهي سِتْر من الفقر »(١) .

وقال ﷺ : « الخيل لثلاثة : هي لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر فأما الذي هي له أجر ، فرجل ربطها في سبيل الله ، فأطال لها في مَرْجٍ أو روضة ، فما أصابت في طيلها من المرج والروضة ، كانت له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنّت شرَفًا أو شرفين ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرّت بنهر فشربت ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات . ورجل ربطها تغنيا ، وسترًا ، وتعفُّفًا ، ثم لم ينس حق الله في رقابها وظهورها ، فهي له ستر ، ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً لأهل الإسلام فهي له وزر »(٢) .

قال ابن حجر :

المرج : موضع الكلأ ، وأكثر ما يطلق على الموضع المطمئن ، والروضة أكثر ما يطلق في الموضع المرتفع .

« فما أصابت في طيلها » : هو الحبل الذي تربط به ويطول لها لترعى ، ويقال له : طُوَل بالواو المفتوحة قوله : « ولم يرد أن يسقيها » فيه أن الإنسان يؤجر على التفاصيل التي تقع في معنى الطاعة إذا قصد أصلها ، وإن لم يقصد التفاصيل(٣).

---

(١) رواه أحمد عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٣٤٥ - الإرواء ١٥٠٣ .

(٢) رواه مالك وأحمد والبيهقي والترمذي والنسائيّ وابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني ، صحيح الجامع ٣٣٤٧ .

(٣) فتح الباري (٦/٧٥ - ٧٦) .

عن عمر بن عبد العزيز- رحمه الله تعالى- قال: أثبت لي عن رسول الله- ﷺ - أنه قال : « من كان له فرس عربي فأكرمه ، أكرمه الله ؛ وإن أهانه ، أهانه الله »[1].

قال رسول الله - ﷺ - : « إنه ليس من فرس عربي ، إلا يُؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول : اللهم ، إنك خولتني مَنْ خولتني من بني آدم ، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه »[2] .

فما بالهم أهانوها ، ما خيولهم بالعاديات ، ولا هي بالموريات قدحًا ، وما هي بالمغيرات صبحا ..

لم يستقلوا الصافنات وإنما ... ركبوا بغالًا سعيهن ثقيلُ
وتجرَّدوا من كلِّ أبيض صارمٍ ... للمجد فيه تلألؤٌ وصليلُ
جاءوا يسوقهمُ الأعادي عنوةً ... فهمو لهم بين الأنام ذيولُ
جاءوا ويا بئس المجيء كأنهمْ ... حُمُرٌ تساقُ إلى الردى وعجولُ

وقال الشاعر :

لمن أكحلُ عين الشعر في زمنٍ ... فرسانه لعبوا بالنار واحترقوا
لمن نرقِّص أوزان الخليل وما ... في قومنا فارس إلا به رهقُ
لمن أغرد والأحداث تكشف لي ... عن ساقها وسرايا أمتي نَزِقُ
ما بال غرة هذا اليوم باهتة ... كأنما هي في وجه الضحى بهقُ
مُت يا سؤالي فكلُّ الراكضين إلى ... أوهامهمْ ذهبوا والثابتون بقوا
يا عازف الحرفِ ما كل الشداة ... شدوا ولا جميع القوافي ريحها عبقُ
جواد دينك ما زالت حوافره ... تشدو وما زال في الميدان ينطلقُ

---

(١) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٣٤٩) .

(٢) رواه أحمد والنسائي والحاكم عن أبي ذر ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٤١٠ ، الترغيب (٢ / ١٦٢) .

○ النفقة في سبيل الله وإعانة الغازي ○

قال رسول الله ﷺ : « من أظلَّ رأس غازٍ أظلّه الله يوم القيامة ، ومن جهز غازيًا في سبيل الله فله مثل أجره حتى يموت أوْ يرجع ، ومن بنى لله مسجدًا يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتا في الجنة »[1] .

وقال ﷺ للذي وقف ناقة مخطومة في سبيل الله عز وجل : « لك بها سبعمائة ناقة في الجنة »[2] .

وقال ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة »[3][4] .

ظلّ بظلّ ، وبيت ببيت ، وناقة بسبعمائة ناقة ، والجزاء من جنس العمل ...

عليكم بالجهاد في سبيل الله عز وجل ، فإنّه باب يذهب الله به الهم والغم .

هموم الدنيا وغمها كثير ، ويظن الناس أنَّ الذي خرج يكثر همه وغمه ، فطرد الله عنه الهم والغم كيف لا ؟ « ومن قاتل فواق ناقة وجبت له الجنة ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١/٣١٠) ، وابن ماجة (٢٧٥٨) ، وابن حبان (٤٦٢٨)، والبيهقي (١٧٢/٩) ، والحاكم (٢/٨٩) ، وأحمد (١/٢٠) ، وقال شعيب الأرنؤوط في الإحسان : رجاله ثقات ، رجال الصحيح .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٠٣٠ ، والسلسلة الصحيحة ٦٣٤ .

(٣) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن مسعود .

(٤) يحتمل أن معناه لك بها أجر سبعمائة ناقة ، ويحتمل أن يكون على ظاهره ويكون له بها في الجنة سبعمائة ناقة كلها وواحدة منهن مخطومة ، يركبهن حيث شاء للتنزه ، كما جاء في خيل الجنة ونجبها . قال الثوري : وهذا الاحتمال أظهر والله أعلم – النووي شرح مسلم .

ولا يجتمع غبار خيل الله ودخان جهنم في منخري رجلٍ أبدًا » .

وانظر إلى فرح ذلك الزاهد شقيق البلخي لما قال لمن كان بجواره في الصف : فرحك يعدل فرحك يوم زفت إليك امرأتك .

وانظر إلى فرح أهليهم ، فكيف بفرحهم همْ ؟!.

قال أبو قدامة الشامي : كنت أميرًا على الجيش في بعض الغزوات ، فدخلت بعض البلدان فدعوت الناس إلى الجهاد ورغبتهم في الثواب ، وذكرت فضل الشهادة ، ثم تفرق الناس ، وسرت إلى منزلي فإذا بامرأة من أحسن الناس تنادي : يا أبا قدامة ، فقلت : هذه مكيدة من الشيطان ، فلم أجبها فعادت فنادتني فلم أجبها فقالت: هكذا يفعل أرباب الصلاح بأهل الإرادة ؟! فوقفت لها ، فجاءت ودفعت إليَّ رقعة وحزمة مشدودة ، ثم انصرفت وهي تبكي ، قال : فنظرت إلى الورقة ، وإذا مكتوب فيها : دعوت الناس إلى الجهاد ، وحرضتهم على الثواب ، وأنا امرأة ولا قدرة لي على الجهاد وقد قطعت أحسن ما فيّ وهما ضفيرتاي ، وقد أتيت بهما ، لتجعلهما قيدًا لفرسك ، لعل الله يرى ذلك فيغفر لي . فلما كانت ليلة القتال أخرجتُ الضفيرتين فقيدتُ بهما فرسي ، فلما طلع الفجر ووقع القتال ، فإذا أنا بغلام حسن الوجه صبور على الشدائد فتقدمت إليه ، يا بني أنت راجل ولا آمن أن تجول الخيل فتطؤك بأرجلها ، فارجع إلى موضعك ، قال : فالتفت إليّ وقال : كيف أرجع وقد قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار﴾ [الأنفال: ١٥] قال : فأعطيته قوسًا كان معي ، فقال : يا أبا قدامة أقرضني ثلاثة أسهم ، فقلت : ما هذا وقت قرض ، فقال : بالله عليك أقرضني ، قال : فأعطيته سهمًا فوضعه في قوسه فقتل ، فقلت : أنا شريكك في الثواب ؟ فقال : نعم ، فأعطيته سهمًا آخر فقتل به روميًا آخر ، ثم ناولته الثالث فرمى به وقال : السلام عليك ، سلام مودع ، فجاءه سهم بين عينيه ، فخر صريعا ، فوقفت عليه وقلت : يا ولدي لا تنسني ، فإنك عاهدتني . فقال : نعم . ثم قال : يا أبا قدامة لي إليك حاجة إذا دخلت المدينة فائت والدتي وسلم عليها عني ، وناولها هذا الخرج ، فقلت :

ومن والدتك ؟ قال : التي قطعت شعرها وقالت : اجعله قيدًا لفرسك ، قال : فاشتغلت بالبكاء فقضى نحبه رحمه الله ، فدفنته ، فلما انقضى القتال وعدت إلى قبره ، رأيته على وجه الأرض قد قذفته الأرض ، فحفرت له حفرة أخرى فدفنته ، فقذفته ثانيًا ، فقال أصحابنا : دعه فهو غلام ولعله خرج من غير إذن والدته ، قال : فوقعت في حيرة فأذن مؤذن العشاء فقمت فصليت وجعلت أتضرع إلى الله وأبكي وأقول : يا رب ما أدري ما أصنع به ، قال : فسمعت صوتا : يا أبا قدامة دع ولي الله واذهب ، قال : فتركته فنزلت طيور فأكلته ، وأتت السباع فابتلعت العظام .

فلما أتيت المدينة ذهبت إلى بيت والدته فطرقت الباب ، فخرجت طفلة صغيرة فلما رأت الخرج رجعت ونادت يا أماه : جاء أبو قدامة بخرج أخي ، وما أرى أخي معه ، واحسرتاه في العام الأول أصبنا بأبي ، وفي الثاني بأخي ، وفي هذا بأخي الآخر ، قال : فكدت أتلف من البكاء .

فخرجت تلك المرأة وهي تقول : أمهنيًا جئت أم معزيًا ؟ إن كان ولدي قد مات فعزني ، وإن كان قد استشهد فهنني . فقلت : لا والله ، بل استشهد ، فقالت : وما علامة ذلك ؟ قلت : قتل ، قالت : قبلته الأرض أم لا ؟ قلت : لا والله . قالت : الحمد لله . ثم فتحت صندوقًا وأخرجتْ مسحًا أسود وغلًّا من حديد وقالت : إنه كان إذا جنَّه الليل يلبس هذا المسح ، ويغلُّ يده بهذا الغل ويقول : إلهي ، احشرني من حواصل الطير وبطون السباع ، فما لي عين تراك . وقد استجاب الله منه ذلك[1] .

* * *

(١) فضائل الجهاد لابن النحاس (٢ / ٦٩١ - ٦٩٢) .